من قتل أمير الحج الشامي؟
حياة عبد الرحمن باشا اليوسف
ومقتله سنة ١٩٢٠
القسم الثاني
من الحرب العالمية الأولى
والمرحلة الفيصلية حتى مقتل اليوسف

د. سامي مروان مبيِّض(١)

(1) رئيس مؤسسة تاريخ دمشق.

ملخَّص البحث[٢]

سيكون الجزء الثاني من هذا البحث مخصَّص لمرحلة ما بعد الدولة العثمانية في حياة عبد الرحمن باشا اليوسف، وكيف استطاع إعادة إنتاج نفسه بعد أن كان أميراً لمحمل الحج الشامي، إذ قام بتأسيس حزب سياسي ودخل مجلس النواب (المؤتمر السوري العام) في عهد الملك فيصل، الذي أوصله إلى منصب رئيس مجلس الشورى عشية الاحتلال الفرنسي لمدينة دمشق، وفيه قُتل يوم ٢١ آب ١٩٢٠ .

مقدمة:

وجد عبد الرحمن باشا اليوسف نفسه على مفترق طرق عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، عندما أدرك أن الحكم العثماني في سورية دخل في مرحلة حرجة، نظراً للصعوبات المادية والهزائم العسكرية. لم يتخل عن العثمانيين كما فعل غيره من أعيان العرب وظلَّ موالياً لهم حتى النهاية، ولكنه فتح صفحة جديدة في حياته عشية الانسحاب العثماني من مدينة دمشق في أيلول ١٩١٨ ، ودخل في معترك السياسة، نائباً في المؤتمر السوري العام ورئيساً مؤسِّساً لحزب سياسي، قبل تعيينه رئيساً لمجلس الشورى في الساعات الأخيرة من حكم الملك فيصل في سورية، من ٢٦ تموز ١٩٢٠ ولغاية مقتله في سهل حوران يوم ٢١ آب ١٩٢٠ .

أولاً _ الحرب العظمى في دمشق:

اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، وحملت معها الأهوال والمآسي لكافة رعايا الدولة العثمانية، ولم يسلم منها أحد بالمطلق، لا صغير ولا كبير، ولا فقير أو غني. سيق آلاف الشبان إلى خطوط التماس على الجبهات العثمانية، فيما عُرف بالسفربرلك، ومن أصل ثلاثة ملايين جندي في الجيش العثماني، قُتل ٣٢٥ ألفًا في المعارك، وتوفِّي ربع مليون شخص نتيجة الأمراض والأوبئة[٣]. كما انشقَّ ما لا يقلُّ عن مليون ونصف مليون شخص، كان نصفُهم من الجنود العرب. من نجا من الموت منهم انضمَّ إلى صفوف الثورة العربية الكبرى التي أُعلنت في الحجاز عام ١٩١٦ ، بقيادة الشريف حسين بن علي، حليف الحكومة البريطانية وأمير مكة المكرمة.

لم يكن اليوسف مُعجَبًا بالشريف حسين، عكس معظم الدمشقيين الذين بايعوه وأيَّدوه، وطالما وصف ثورته بأكبر مؤامرة عرفتها الأمة الإسلامية في العصر الحديث، لأنها قضت على الخلافة الإسلامية الممثَّلة بالسلطان، ومزَّقت الإمبراطورية التي وصلت حدودها ذات يوم إلى شمال أفريقيا وقلب أوروبا[٤]. وكيف له أن يُؤيِّد رجلاً غريبًا قادمًا من الصحراء، طامحًا لعزل خليفة المسلمين، بمساعدة عسكرية من الجيش البريطاني؟

خيَّم الموت على المجتمع الدمشقي خلال سنوات الحرب العظمى، حيث راقب الناس أقرباءَهم وأحبّتَهم يُساقون إلى جبهات القتال، في معركة لا ناقة لهم بها ولا جمل. كانت نتائج الحرب كارثيّة على المجتمع السوري، نفسيًّا وعسكريًّا وماديًّا، تحديداً بعد فرض حصار خانق من قبل الحلفاء على

(2) نُشر القسم الأول من هذا البحث، والمتعلق بحياة عبد الرحمن باشا اليوسف من الولادة وحتى بداية الحرب العالمية الأولى، في العدد السابق من المجلة، وهذا هو القسم الثاني من البحث، الذي يُكمل الأول.

(3) Elizabeth Thompson. Colonial Citizens, 22.

(4) أوراق حسن سامي اليوسف، نجل عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق – فينا).

المرافئ العثمانية، مَنع وصول المُؤن والغاز إلى ولاية سورية، وأدَّى إلى مجاعة رهيبة، ضربت كل المدن الكبرى، بما فيها دمشق.

عبد الرحمن اليوسف كان رجلاً ذكيًّا ولَمّاحًا، وقد أدرك، مع تقدم الحرب، أنها ستؤدي إلى نهاية الإمبراطورية التي عرفها وعمل في صفوفها طوال حياته. لا شك أنه تخوَّف كثيرًا من الفوضى والجوع الذي اجتاح المجتمع من حوله، ولكنه وطوال سنوات الحرب، لم يُغيِّر ولاءه، ولم يُفكِّر بالتخلِّي عن العثمانيين أو بمساندة الثورة العربية.

لكنّه احترامًا لمشاعر السوريين غيَّر من سلوكه وطريقة حياته في دمشق، فأوقف جميع الولائم الصاخبة التي كانت تُقام في داره، وأمر أفراد أسرته بالامتناع عن مظاهر الترف والبذخ، احترامًا لمشاعر الناس، أو ربما خوفًا من نقمتهم، وصار أكثرَ تخوُّفًا على مستقبل الدولة وعلى مستقبله الشخصي والعائلي، وهذا ما يُفسِّر قرارَه المفاجئ بإرسال جميع أبنائه الذكور للدراسة في جامعات غربية، بدلًا من جامعات إسطنبول، حيث كانت التجاذبات السياسية تُسيطر على حياة الطلبة، وأراد اليوسف لأبنائه أن يكونوا بعيدين عنها.

عبد الرحمن اليوسف

أكبر أولاده محمد سعيد (المسمى على اسم جده محمد سعيد شمدين آغا) تخرَّج ضابطًا من الكلية الحربية في فيينا، حيث كان نبلاء النمسا يُرسلون أبناءَهم منذ بدايات القرن الثامن عشر. استغرب الكثيرون قرار إرساله إلى مدرسة حربية، ولعل لقراره علاقةً بصعود طبقة عسكرية جديدة في إسطنبول، أصبحت هي الآمر الناهي في شؤون السلطنة كافة.

أراد اليوسف أن يكون أكبر أبنائه من هذا المجتمع المتنفِّذ، الذي يُتوقَّع له أن يَحكم الإمبراطورية

في المستقبل المنظور، سواء بقيت على حالها أو تغيَّرت حدوها وتغير نظام الحكم فيها. فالكثير من قادة جمعية الاتحاد والترقي كانوا من العسكر، وأدرك اليوسف أنهم سيحتاجون إلى دماء جديدة في المؤسسة العسكرية، لعصرنتها ونقلها نحو التطوُّر والحداثة في مرحلة ما بعد الحرب.

أما ابنه الثاني حسن سامي فقد أُرسل إلى جامعة بيروت الأميركية، ليتعلم أصول الإدارة والسياسة معًا، ويكون سندًا لشقيقه الأكبر. وكانت جامعة سويسرا العريقة من نصيب أصغر أولاده فؤاد، الذي تخصَّص بعلوم الزراعة الحديثة، ليتمكن من إدارة أملاك الأسرة.

عكست هذه الاختصاصات المتنوِّعة رغبةَ اليوسف بتوزيع ذريته على المؤسسات العسكرية والسياسية والاقتصادية في البلاد، تمامًا كما كان يفعل نبلاء أوروبا، عندما كانوا يُرسلون أكبر أبنائهم إلى الجيش، والثاني إلى الكنيسة، ويُدخلون الثالث على الحياة السياسية، ليصبح وزيرًا أو سفيرًا.

وهكذا خطَّط اليوسفَ لجعل وريث له في كل قطّاع من قطاعات الدولة، وتسليحهم بشهادات مرموقة من كبرى الجامعات، تكون كفيلةً بتأمين حياة كريمة لهم من بعده، في حال تعرُّضه لأي أذًى أو تعرُّض ثروته المالية لأي ضربة أو زعزعة.

ثانياً _ اليوسف والعهد الفيصلي:

في نهاية شهر أيلول من العام ١٩١٨، خرج آخر جندي عثماني عن دمشق، ودخلها الأمير الشاب فيصل بن الحسين، نجل الشريف حسين بن علي، محاطًا بالفرسان والخيّالة، معلنًا استقلال المدينة استقلالاً كاملاً عن الحكم العثماني.

خرج جميع أهالي دمشق لاستقبال الأمير فيصل، يتقدَّمهم مفتي المدينة أبو الخير عابدين، والمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، رافعين رايات الثورة العربية الكبرى. اتجه الأمير فيصل إلى فندق فيكتوريا على ضفاف نهر بردى، الذي كان مُلكًا لأحمد عزت باشا العابد، حيث كان في استقباله جميعُ أعيان المدينة، من وجهاء وعلماء وضباط وقضاة. وحده اليوسف تغيب عن هذا المشهد، بحجة سفره خارج البلاد بمهمة رسمية في إسطنبول[٥].

لا نعرف إن كان اليوسف مسافرًا حقًّا في هذا اليوم التاريخي أم أنه ادّعى السفر لتبرير الغياب وعدم تقديم البيعة للأمير فيصل. فمثله مثل الكثير من الأعيان القدامى المقربين من العثمانيين، كان اليوسف ينظر إلى فيصل نظرة فيها الكثير من الريبة والحذر، بسبب علاقته بالجيش البريطاني. كان الأمير الهاشمي غريبًا عن سورية، لا يعرف أهلها وعاداتهم، ولا يملك أي خبرة تُذكر تُخوِّله حُكمَ مدينة تاريخية وعريقة مثل دمشق. كانت نظرة اليوسف له لا تخلو من الاستخفاف والشعور بأنه حاكم «مستورد» فُرض فرضًا على سورية من قبل الإنكليز.

تخوَّف اليوسف يومها من انتشار الفوضى والغوغاء، نظرًا لعمليات السرقة والنهب التي عمَّت الأسواق قبل دخول القوات العربية، كما تخوَّف من المدِّ العروبي الجارف الذي اجتاح مدينة دمشق عشية سقوط الحكم العثماني، ومن مزاودات الكثير من أنصار فيصل الذين وعدوا بالقضاء على كل من لم يُؤيِّد الثورة العربية، وظل مواليًا للدولة العثمانية حتى النهاية.

(5) Allawi, Ali. Faisal of Iraq, 138.

من أولى قرارات الحكومة العسكرية التي أقامها الأمير فيصل بدمشق كان إلغاء الألقاب العثمانية، ومنها الباشاوية التي حملها اليوسف طوال حياته، وتغيير اسم بعض الشوارع المنسوبة للعثمانيين، مثل «شارع جمال باشا»، الذي صار اسمه «شارع النصر، والجادة الرشادية» التي تحولت إلى «شارع خالد بن الوليد»[٦].

ولكن نظرًا لمكانة اليوسف الرفيعة في المجتمع السوري، اتصل به الفريق رضا باشا الركابي، الحاكم العسكري الجديد المعيّن من قبل الأمير فيصل، وضمن له سلامته وسلامة أسرته وأملاكه، وطلب منه العودة إلى دمشق. ولكنه أعلن عن إلغاء منصب «أمير الحج» نظرًا لتكاليفه الباهظة، التي كانت الحكومة العربية الوليدة لا تستطيع أن تتحمَّلها كما كانت تفعل الدولة العثمانية من قبلُ. وبذلك عاد اليوسف مواطنًا عاديًّا، متموِّلًا وثريًّا، ولكن من دون أي منصب سياسي.

ثالثاً _ تجربة اليوسف مع الحزب السوري الوطني:

بعد تجريده من منصبه حاول اليوسف دخول المعترك السياسي، وشارك بتأسيس حزب يدعى «الحزب الوطني السوري»، الذي عرف شعبيًّا بحزب الذوات، نظرًا لتواجد الباشا في صدارته[٧]. تألَّف الحزب من هيئة إدارية من ستة عشر عضوًا، وهيئة استشارية فيها خمسة وعشرون عضوًا، جميعهم من الأعيان. طالبوا باستقلال سورية بحدودها الطبيعية، وضمان وحدة أراضيها، دون ذكر تحفُّظاتهم على الدولة الهاشمية التي أُقيمت في دمشق، ولا على أميرها الشاب.

ومن اللافت للنظر لجوء اليوسف وصحبه إلى الهوية السورية في اسم الحزب، وهي المرة الأولى التي يُعرّف بها أمير الحج الأسبق على نفسه بأنه «سوري، لا عثماني».

في البيان التأسيسي للحزب طالب أعضاؤه بنظام ملكي دستوري، يُقيّد صلاحيات الأمير فيصل، ويجعله مسؤولًا أمام مجلس نواب منتخب. كما طالبوا بالتساوي والحقوق بين جميع مكونات الشعب السوري، دون التفريق بين أي عرق أو دين. ولكي لا يبقى الحزب مرتبطًا بالذوات، طالب أعضائه بإنشاء «صناديق للتعاون الاقتصادي»، تقوم على تبرُّعات الأعضاء المؤسِّسين لرفع السوية المعيشية لكافة أبناء الشعب السوري، وكان ضمن أهدافهم تنشيط التجارة والصناعة، وصون حقوق النقابات والعمال[٨].

في نظرة إلى أسماء المؤسسين في «الحزب الوطني السوري»، نجد قائمة من النُخب الدمشقية المحافظة، أمثال الشيخ تاج الدين الحسني، نجل المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، أحد أشهر علماء الشّام في حينها وأكثرهم احترامًا ونفوذًا في المشرق العربي. وفي محاولة لاستمالة العلماء إلى صفوف الحزب، تعاون اليوسف أيضًا مع أمين الفتوى في دمشق الشيخ عبد المحسن الأسطواني، ومع الشيخ عبد القادر الخطيب، خطيب الجامع الأموي، الذي ظلّ مقربًا منه، وكان معه في القطار يوم حادثة الاغتيال في خربة غزالة[٩].

(6) معالم دمشق التاريخية، قتيبة الشهابي وأحمد الإبيش، 351.
(7) الحياة الحزبية في سورية، محمد حرب فرزات، 76-77.
(8) الحياة الحزبية في سورية، محمد حرب فرزات، 76-77.
(9) مرآة الشام، العظمة، 245.

رابعاً _ اليوسف نائبًا في المؤتمر السوري الأول:

عند الإعلان عن فتح باب الترشُّح لأول برلمان عربي في العهد الفيصلي، الذي عُرف بالمؤتمر السوري الأول، ترشَّح عبد الرحمن اليوسف للمقعد النيابي ممثِّلاً عن مدينة دمشق، على قوائم «الحزب الوطني السوري».

وفي مطلع شهر حزيران عام ١٩١٩ دخل نواب الأمة السورية إلى مبنى النادي العربي وسط مدينة دمشق، الواقع على الجهة الغربية من الطريق المؤدي إلى جسر الصالحية، لافتتاح أولى جلسات برلمانهم. لم يكن اليوسف فاعلاً في هذا المجلس، ولم يشارك بأيٍّ من النقاشات التي دارت في داخله، عن العلمانية وحقوق المرأة والدستور، بل بقي صامتًا في معظم الأوقات، يراقب التطورات الإقليمية والدولية التي كانت تُنذر بقرب احتلال سورية من قبل الجيش الفرنسي، المرابط في الساحل منذ شتاء العام ١٩١٨، تنفيذًا لاتفاقية سايكس بيكو المبرمة أيام الحرب بين بريطانيا وحكومة باريس.

وفي ٨ آذار ١٩٢٠ قام المؤتمر السوري بتتويج فيصل ملكًا على سورية، في احتفال كبير بدار البلدية بساحة المرجة، حضره عبد الرحمن اليوسف مع جميع النواب. وقد اعترضت فرنسا على قرار التتويج، معتبرة أنه خرق لاتفاقية سايكس بيكو.

معظم النواب الشباب كانوا متحمِّسين لمواجهة الفرنسيين، دفاعًا عن الملك فيصل وعرشه، ولكن اليوسف فضَّل التوصُّل إلى تسوية سياسية مع المندوب السامي هنري غورو، خوفًا من عدم قدرة الجيش السوري على الصمود في وجه فرنسا[١٠].

وعند اقتراب الحرب من مدينتهم خلال الأسابيع الأولى من شهر تموز عام ١٩٢٠، صمتت كافة الأصوات المطالبة بتسريع وتيرة الإصلاح في الحكومة العربية، وعادت اليد العليا في المجتمع إلى رجال الدين والمحافظين. تشكَّلت يومها «اللجنة الوطنية العليا» لتنظيم التطوُّع وتدريب الرجال على حمل السلاح، برئاسة الشيخ كامل القصاب، أحد أشهر رجال الدين في دمشق، الذي وعد فيصل بعشرة آلاف مقاتل و٣٠٠ ذهبية لشراء السلاح. فما كان أمام الملك إلا الانصياع الكلي لهذا المعسكر من الشباب المتحمسين، الذي رأى فيه سبل الخلاص الوحيد من محنته السياسية، وربما العسكرية[١١].

ولتمويل أعمال «اللجنة الوطنية العليا» قامت الدولة، وبتشجيع من الشيخ القصاب، بفرض ضريبة على صافي دخل الأغنياء، وصلت إلى٢ ٪، تعهَّدت الحكومة بتحصيلها[١٢]. وقد طُلب من اليوسف أن يكون أول المتبرِّعين لأعمال اللجنة، بصفته سيد المتموِّلين في دمشق، ولأنه كان دومًا في طليعة المتبرعين للدولة العثمانية. لم يكن الباشا مؤمنًا لا بأهداف اللجنة ولا بقيادتها، ولكنه رضخ لقرارها مُجبَرًا.

ومع مرور الوقت شعر اليوسف بأنه أصبح خارج دائرة التأثير وصنع القرار، بالرغم من نفوذه وماله ومكانته السياسية والاجتماعية، وأنه يتعرض إلى عملية تهميش ممنهجة، على يد الجيل الجديد من

(10) مرآة الشام، العظمة، 245.
(11) مرآة الشام، العظمة، 245.
(12) Russell. The first modern Arab state, 144.

السياسيين الشباب المحيطين بالملك فيصل، أمثال كامل القصاب وغيره[١٣]. صحيح أنه دخل المؤتمر السوري من أوسع أبوابه ولكن وجوده بقي تشريفيًّا لا أكثر، بعد عزله كليًّا عن أي منصب تنفيذي في الدولة السورية الحديثة، التي كانت حصة الأسد فيها لأبناء الطبقة الوسطى.

خامساً _ ما بعد ميسلون:

في ٢٤ تموز ١٩٢٠، حصلت مواجهة عسكرية بين الجيش الفيصلي والفرنسيين في معركة ميسلون، غرب العاصمة دمشق، دامت أربع ساعات، وأدَّت إلى استشهاد وزير الحربية يوسف العظمة، وإلى انهيار المقاومة السورية بكافة أشكالها .

وعلى إثر الموقعة خُلع الملك فيصل عن عرش سورية، وأمرت فرنسا بمغادرته دمشق فورًا، قبل دخول جيشها إلى المدينة في صباح ٢٥ تموز. توجَّه فيصل إلى قرية الكسوة ثم حلَّ ضيفًا على مشايخ حوران، قبل توجُّهه إلى مدينة حيفا الفلسطينية، إثر صدور تهديد صريح من الفرنسيين بمعاقبة كل من يقدم له العون أو الأمان.

وقبل مغادرته الحكم عيَّن علاء الدين دروبي رئيسًا للوزراء، آملاً أن تنجح مساعيه بإقناع الفرنسيين بالعدول عن قراراتهم. وفي هذه الحكومة، ذهبت رئاسة مجلس الشورى لعبد الرحمن اليوسف، خلفًا للوجيه رضا الصلح (والد رئيس وزراء لبنان رياض الصلح)[١٤]. وكان مجلس الشورى قد أُنشئ في عهد الأمير لدراسة القوانين، وكان زميلُ اليوسف السابق في مجلس المبعوثان، الشيخُ عبد المحسن الاسطواني، نائبًا لرئيسه الأول.

أولى أعمال الحكومة الجديدة كان إصدار مذكرة إلى الملك المخلوع بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٢٠، تطالبه بمغادرة الأراضي السورية فورًا، والتوجُّه إلى الحجاز[١٥]. فغادر فيصل سورية ولم يعد لها أبدًا حتى وفاته سنة ١٩٣٣ .

وقد باشرت الحكومة السورية بجباية ضرائب كانت سلطة الانتداب قد فرضتها على المدن السورية، عقابًا للأهالي على دعمهم للجيش في معركة ميسلون. كما منعت حكومة الدروبي موظفي الدولة من الانخراط بأي عمل سياسي أو حزبي، وأمرت بنفي كل الموالين لفيصل خارج البلاد، إمّا إلى فلسطين أو إلى العراق أو أوروبا . وصدر حكم غيابي بالإعدام على معظمهم يوم ٨ آب ١٩٢٠، وقامت الحكومة بإغلاق «النادي العربي،» حيث عقد المؤتمر السوري جلساته، وبحل «اللجنة الوطنية العليا»[١٦].

وفي السراي الكبير وسط ساحة المرجة، أقام الدروبي واليوسف حفل استقبال على شرف المندوب السامي الفرنسي هنري غورو، خطب فيه الأول مُرحِّبًا، وفضَّل الثاني عدم الإدلاء بأي تصريح. تحدث الدروبي عن مآثر الثورة الفرنسية على النظام الملكي، ورحَّب بدور فرنسا «الحضاري» في سورية، وذكر بأن النخب السورية ترحِّب بالحريات التي وعدت بها فرنسا، وكل القيم السامية التي

(13) Allawi. Faisal of Iraq, 241.
(14) قصاصات غير قابلة للطعن، أحمد وليد منصور، 34.
(15) يوم ميسلون، ساطع الحصري، 155.
(16) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 20.

سوف تأتي مع انتدابها على سورية. وأشار الدروبي إلى فيصل بشكل عابر وسريع، واصفًا إياه بلقب «الشريف» لا «الملك»، وعندما سأله الناس عن هذا التجاهل، قال إنه لا يُريد إغضاب الحكومة الفرنسية، التي لم تعترف بشرعية تتويجه ملكًا على البلاد يوم ٨ آذار ١٩٢٠.

سادساً _ اجتماع إربد ونصيحة الرجل المجهول:

كان مشايخ حوران أول المعترضين على سياسات علاء الدين الدروبي المهادنة لفرنسا، ولم يتردَّد أحد منهم في استقبال الملك عند مروره بقراهم، وهو في طريقه إلى فلسطين. وفي ١٨ آب ١٩٢٠، عقدوا اجتماعًا سريًا في بلدة إربد، مركز قضاء عجلون، قرَّروا فيه إعلان العصيان على حكومة الدروبي، مهدِّدين بسلخ مناطقهم عن سورية وضمِّها إلى شرقيّ الأردن التابعة للإنكليز. كما أقسموا اليمين على مساعدة فيصل في العودة إلى عرشه المسلوب في دمشق[١٧].

وقد وصل خبر الاجتماع إلى السراي الحكومي بدمشق عبر رسالة سرية «مشفرة» مرسلة من قبل محافظ حوران أبي الخير الجندي، وهنا تقرَّر إرسال الوفد الحكومي إلى المنطقة بحثًا عن تسوية.

طُلب من اليوسف مرافقة الوفد، نظرًا لمكانته في سهل حوران، ولم يعرض المشاركة بنفسه. وقبل وصولهم إلى محطة خربة غزالة، توقَّف أعضاء الوفد في بلدة خبب، حيث جاء أحد المشايخ للقاء اليوسف. وحدَّثه عن اجتماع إربد، وقال إن أهالي حوران ينوون الانتقام من حلفاء فرنسا في سورية، ناصحًا الباشا بالعودة إلى دمشق[١٨]. ولكن الأخير رفض النصيحة، مشدِّدًا على أنه لم يكن يومًا حليفًا لحكومة الانتداب، وأن قرار تعينه رئيسًا لمجلس الشورى حمل توقيع فيصل بن الحسين، لا الجنرال غورو.

لم تأت كتب التاريخ على ذكر اسم هذا الرجل «فاعل الخير»، وهل كان على علم بما كان ينتظر اليوسف والدروبي في خربة غزالة، أم أنه كان مجرد تكهُّن أن حياتهم كانت في خطر.

سابعاً _ تفاصيل صغيرة في الطريق إلى درعا:

هنا يجب الإشارة إلى أن القطار لم يتوقَّف في محطة خربة غزالة في ٢١ آب ١٩٢٠، بالرغم من كل الدماء التي سالت هناك، وأنه أكمل في طريقه إلى مدينة درعا، وعلى متنه الرجلان المتبقيان من أعضاء الوفد، وهما الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ عبد الجليل الدرّة.

بقي الوزير الأيوبي في خربة غزالة، وظلّ في ضيافة وحماية أحد تجار حيّ الميدان، ولا يوجد أي إشارة إلى كيفية عودته إلى دمشق، أو متى تم ذلك. المؤكد أنه ظهر في دمشق بعد أيام قليلة، يوم تشكيل حكومة جميل الإلشي التي خلفت حكومة الدروبي، وهذا يتعارض مع الرواية الفرنسية القائلة أن الطريق بين خربة غزالة ودمشق ظلّ مقطوعًا لمدة شهر كامل. هذه الحجة يومئذٍ كانت لتبرير تأخُّر وصول جثامين اليوسف والدروبي إلى دمشق حتى نهاية شهر أيلول ١٩٢٠.

وصل خبر الاغتيال إلى مدينة درعا طبعًا، وعند وصول مَن تبقَّى من أعضاء الوفد، كان جمع من الأهالي المسلحين في انتظارهم. واللافت للنظر هنا هو أن أحدًا لم يتعرض للشيخين الخطيب والدرة في خربة غزالة، وأنهما لم ينزلا من القطار في حينها كما فعل الأيوبي، بل أكملا طريقهما إلى درعا،

(17) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 20.
(18) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 33.

مع العلم أن سبب السفر إلى سهل حوران، بنية المصالحة والتهدئة، قد بطل كليًّا بعد مقتل زعماء الوفد.

وفي درعا، هاجم الجمع القطار مجدَّدًا، بحثًا عن عبد القادر الخطيب، الذي هرب إلى مقصورة الدرجة الثالثة. أما الدرة فقد حاول المسلحون إنزاله من القطار وهم يصرخون: «هذا هو...أنزلوه... أنزلوه»[19]. واجههم بشجاعة، قائلاً: «ويحكم! أنا الشيخ عبد الجليل الدرّة، معلِّم أبنائكم عدة سنين في درعا وغيرها من قرى حوران. أتسبُّونني الآن؟ سامحكم الله. أين أبناؤكم ليعرّفوكم بي؟»[20]. فما كان من الأهالي المجتمعين بسلاحهم إلا أن تركوه يمضي، ولم يقتربوا منه أو من الشيخ الخطيب، ولم يلحق الأذى بأيٍّ منهما.

هذا الفصل من القصة، الذي ورد على لسان الوزير يوسف الحكيم، يحتاج إلى وقفة تأمُّل وطرح عدة أسئلة جوهرية:

ما هو سرُّ عدم المساس بالشيخين الخطيب والدرة في خربة غزالة، والتعرُّض لهما فقط في درعا، علمًا أنهما كانا ضمن الوفد الحكومي منذ البداية. وكيف أكملا طريقهما إلى درعا بعد كل ما جرى في خربة غزالة؟ ألم يخفْ الشيخان على أنفسهم بعد مقتل الدروبي واليوسف؟ وكيف يكملان الطريق إلى درعا دون أي حماية، بما أن الضابطين الفرنسيين المرافقين للوفد بقيا في خربة غزالة ولم يكملا الطريق إلى درعا؟ وكذلك الجنود السنغال، المسبِّب الرئيسي لإطلاق النار، فقد قُتلوا جميعًا في خربة غزالة، وضمن الهرج والمرج لم تتمكَّن السلطات من إرسال بدائل لحماية ما تبقى من أعضاء الوفد.

ثم كيف تمكَّن الشيخ الدرّة من إقناع الجمع الثائر بعدم المساس به وبالخطيب، لماذا لم يفعل ذات الشيء في خربة غزالة لحماية اليوسف والدروبي، ما دامت كلمته مسموعة إلى هذا الحد عند أهالي حوران؟ بعد مرور أكثر من مئة عام على حادثة خربة غزالة، لا يوجد جواب مُقنع وشافٍ عن أي من هذه الأسئلة.

ثامناً _ ما بعد الجريمة:

بعد شهر على وقوع الجريمة، أُرسل جثمان الدروبي إلى حمص، وأُعيد جثمان عبد الرحمن اليوسف إلى دمشق، حيث أُجريت له جنازة رسمية يوم ٢٠ أيلول ١٩٢٠، غاب عنها الجنرال غورو، وشاركت فيها قطع عسكرية فرنسية، ومفرزة درك سورية ناكسة السلاح مع مفرزة من المشاة وأخرى من فرسان الشرطة. كما شارك بعض رجالات وزارة الإلشي في التشييع، وبعض القناصل الأجنبية، ومعهم كل رؤساء الطوائف. وتساءل المشيعون باستغراب: «من قتل عبد الرحمن اليوسف؟»

بالرغم من تولِّيه أرفع المناصب في الدولة الفيصلية، إلا أنه لم يكن يومًا من أنصار فيصل أو من المؤمنين بقيادته وحُكمه. وفي مذكرات رستم حيدر، مستشار الملك، إشارة عابرة إلى الجريمة، مع تعليق: «لو كان جلالته هناك (أي في سورية) لاتُّهم بهذه الحركة (الجريمة). ومن يعلم، لعلهم يلحقونها به»[21]. لم يصل الأمر إلى حد توجيه أصابع الاتهام لفيصل، بالرغم من أن الاغتيال تم على

(19) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 35.
(20) سورية والانتداب الفرنسي، الحكيم، 35-36.
(21) مذكرات رستم حيدر، رستم حيدر، 702.

يد مناصريه، ولكن الأقاويل كثرت بأن موقف اليوسف من الملك فيصل كان سببًا رئيسيًّا في تصفيته. ولكن لو نظرنا بعمق إلى التفاصيل المحيطة بالحدث، لوجدنا أن اليوسف كان على مسافة واحدة من فيصل ومن الفرنسيين معًا، وأنه كان رافضًا لكليهما، متمسِّكًا إما بماضيه العثماني، أو بالهوية السورية التي حاول أن يصنعها لنفسه خلال السنوات الأخيرة من حياته.

لم يكن اليوسف معجبًا بنظام الحكم البرلماني الأوروبي الذي حاول فيصل إنشاءه في دمشق، من منطلق أن الديمقراطية تُهدِّد مكانة أعيان المدن القدامى ونفوذهم، الذين تربعوا على الزعامة بالوراثة، لا عن طريق صناديق الاقتراع. وأن الانتخابات تُوصل أشخاصًا إلى الحكم ليس بالضروري أن يكونوا الأعرق أو الأغنى أو الأكثر خبرة وجاهًا، بل الأكثر شعبية أو قربى من الناس. واليوسف كان ينظر إلى هؤلاء على أنهم دخلاء على المجتمع السياسي الدمشقي، لا ماضي حقيقيًّا لهم إلا تاريخهم القصير مع الأسرة الهاشمية منذ اندلاع الثورة العربية الكبرى.

طبعًا، لم يتغير موقفه من تلك الثورة، بل تعامل معها كأمرٍ واقع، وكذلك كان موقفه من الإنكليز المخطِّطين لها.

لو عاش عبد الرحمن اليوسف لكان شكّل مصدر إزعاج حقيقي بالنسبة للفرنسيين، الذين أقصَوا زعامات البلاد عن مناصبهم، نفيًا واعتقالاً. وحده اليوسف ظلَّ في دمشق، وكان قادرًا على تجديد زعامته، نظرًا لماله الوفير وماضيه السياسي، والقوة العسكرية التي كانت ما تزال تحت إمرته.

بعد حل الجيش السوري إثر معركة ميسلون، وحده اليوسف حافظ على قوات عسكرية، كانت يومًا تحمي محمل الحج وأميرَه، وكانت ما تزال قادرة على ملء الفراغ، وحماية الأهالي والأحياء من غطرسة الفرنسيين. جميع الساسة المخضرمين المتمرِّسين على يد الدولة العثمانية غابوا عن المشهد، أمثال أحمد عزت العابد الذي نُفي إلى مصر، ومحمد فوزي باشا العظم، الذي توفِّي في زمن العهد الفيصلي. واستطاعت فرنسا تفريق الزعامات المتبقية، مثل عبد الرحمن الشهبندر وكامل القصاب، بحجة دعمهم لفيصل، ليتحول اليوسف إلى الرقم الأصعب، وربما الوحيد، في دمشق في صيف العام ١٩٢٠.

جميع الكتب المدرسية المطبوعة حكوميًّا في سورية بعد جلاء الفرنسيين ذكرت الجريمة بشكل مختصر وعابر، مع الإشارة دومًا إلى «تعاون» اليوسف والدروبي مع سلطة الانتداب، وقالت بأنهم قُتلوا على يد «الثوار» بسبب موقفهم الداعم لفرنسا. هذا الكلام مُبسَّط وغير صحيح، ولو كان يسري على الدروبي فهو لا ينطبق على اليوسف. ولكن يبدو أنه أرضى جميع الأطراف، حيث لم يحاول أحد التأكُّد من صحته، بل تبنّاه الجميع كحقيقة دامغة لا مجال للشك فيها أبدًا.

لم يَدِنْ أحد من حكام سورية هذه الجريمة، لا في زمن الانتداب ولا بعده، ولم تطلق أيٌّ من الحكومات السورية اسم الدروبي أو اليوسف على أي مدرسة أو شارع، كما لم تمنحهم صفة الشهادة، كما فعلت مع فوزي الغزي مثلاً، واضع أول دستور جمهوري في البلاد، الذي قتلته زوجته بعد تسع سنوات من حادثة خربة غزالة، أو مع عبد الرحمن الشهبندر، وزير خارجية الملك فيصل الذي قتلته المخابرات الفرنسية داخل عيادته الطبية بدمشق عام ١٩٤٠.

وكأن قراراً جماعيًّا قد اتُّخذ دون الإعلان عنه، بذبح عبد الرحمن اليوسف وعلاء الدين الدروبي معنويًّا وسياسيًّا، تمامًا كما حصل معهم جسديًّا في خربة غزالة. الذكر الوحيد لليوسف في دمشق اليوم هو على لوحة مصنوعة من رخام وُضعت على مدخل مستشفى ابن النفيس، الذي تبرَّعت أسرة اليوسف بأرضه للدولة السورية مطلع الثلاثينيات، تخليداً لذكرى أبيهم. وفي قصر العظم ذكرٌ آخر للرجل عند مُجسَّم محمل الحج الذي ارتبط به طوال حياته.

بعد أقل من سنة على وقوع جريمة الاغتيال، تعرض المندوب السامي الفرنسي هنري غورو لمحاولة اغتيال خلال زيارته لمدنية القنيطرة، في حزيران عام ١٩٢١. فطاردت فرنسا غريمه طوال ثلاث سنوات دون انقطاع حتى تمكَّنت من اعتقاله وإعدامه، ولكنها لم تفعل ذات الشيء مع قتلة اليوسف والدروبي، ولم تكشف عن هويتهم أو دوافعهم. ولم يحصل أي تحقيق علني بالجريمة، لا مع عناصر الدرك الذين اختفَوا من المحطة لحظة وقوع الجريمة، ولا مع الضباط الفرنسيين المرافقين للوفد الحكومي، ولا مع أهالي خربة غزالة أو حتى مع ركاب القطار.

وبعد وقوع الجريمة بشهر كامل، يوم ٢١ أيلول ١٩٢٠، نشرت جريدة «العاصمة» الرسمية خبراً صغيراً في صفحاتها الداخلية جاء فيه أنه تم إعدام ثلاثة من الجناة، دون ذكر أسمائهم[٢٢]. وبعد ثلاثة أيام أصدر رئيس الوزراء الجديد جميل الإلشي بياناً مقتضباً قال فيه إن «حادثة حوران» قد أُقفلت[٢٣].

لم تُقنع هذه الرواية أبناء عبد الرحمن اليوسف، الذين طالما وصفوا التحقيق بالسريع وغير المهني أو النزيه، وحاولوا فتحه مرات ومرات، دون أي جدوى، بسبب ممانعة حكومة الانتداب[٢٤].

كما أزعجهم كثيراً تأخر وصول جثمان أبيهم من حوران، الذي استغرق شهراً كاملاً، بحجة أن فرنسا لم تكن قادرة على نقله سالماً إلى دمشق، نتيجة القلاقل الأمنية وتوقُّف الرحلات البرية بين العاصمة وحوران[٢٥]. كما أن عائلة اليوسف تساءلت كيف تُرك مرافق أبيهم الخاص مصطفى الأيوبي في دمشق، ولم يذهب معه إلى سهل حوران، بناء على طلب من الفرنسيين الذين ألحّوا على اليوسف بأن يُبقيه في دمشق، قائلين إن القوات السنغالية المرسلة من العاصمة كانت تكفي لحماية جميع أعضاء الوفد[٢٦].

الكثير من المعاصرين لعبد الرحمن اليوسف تركوا مذكرات، روَوا فيها أدقَّ التفاصيل من مشاهداتهم اليومية، السياسية منها والعامة، ولكن وحده يوسف الحكيم، وزير النافعة في حكومة الدروبي، تطرَّق لجريمة خربة غزالة في كتابه الشهير «سورية والانتداب الفرنسي» الصادر عن دار النهار في بيروت مطلع الثمانينيات.

أما بقية السياسيين السوريين، فقد مروا على الحادثة مرور الكرام، مثل وزير المعارف ساطع الحصري، ووزير المالية فارس الخوري. حتى أنهم اختلفوا على تاريخ وقوع الجريمة، فالخوري قال

(22) جريدة العاصمة (21 أيلول 1920)
(23) جريدة العاصمة (23 أيلول 1920)
(24) زهير اليوسف (دمشق، 1 شباط 2017)
(25) الكواكب الدرية، بدران. 114
(26) فاتن اليوسف (فينا، 5 آذار 2019).

إنها حصلت يوم ٣١ آب، ولكن المؤرخ عبد العزيز العظمة، شقيق وزير الحربية يوسف العظمة، سجلها في ٢٠ آب. أما يوسف الحكيم فقد دون الحادثة يوم ٢١ آب، وهو التاريخ المتعارف عليه اليوم لجريمة خربة غزالة.

لا يوجد بلد عربي يختلف الزعماء والمؤرخين فيه على تاريخ مقتل أحد رؤساء حكوماته، في مصر مثلاً، تاريخ مقتل النقراشي باشا معروف للجميع، وكذلك تاريخ مقتل وصفي التل في الأردن، وتاريخ اغتيال كل من رياض الصلح ورشيد كرامي في لبنان. وحدهم السوريون بين العرب اختلفوا في تاريخ مقتل رئيس وزرائهم الأسبق ورئيس مجلس الشورى في بلدهم.

بحسب رواية فارس الخوري، التي نُشرت نهاية القرن العشرين، فإن عدداً من الوزراء السوريين رفضوا مرافقة رئيسهم إلى حوران، بحجة أن السفر كان في يوم جمعة، وأنهم لا يستطيعون التغيُّب عن موعد الصلاة في الجامع الأموي[٢٧]. يذكر الخوري بأن ثلاثة وزراء أبَوا أن يسافروا مع الوفد الحكومي، وهم وزير المعارف بديع مؤيد العظم، ووزير الحربية جميل الإلشي، ووزير العدل جلال زهدي. اتصل الإلشي بالخوري وقال له: «الوزراء ماتوا»[٢٨]!

٢٧ () أوراق فارس الخوري، الجزء الثاني، كوليت خوري، 87.

٢٨ () أوراق فارس الخوري، الجزء الثاني، كوليت خوري، ٨٧.

_ الخاتمة:

يبقى السؤال: هل كانت جريمة منظمة أم أنها فوضى عارمة أودت بحياة المسؤولين السوريين؟ وفي حال كانت جريمة سياسية مخطَّطًا لها، فمن وقف خلفها، ومن كان المستفيد منها؟ لا نملك أجوبة على هذه التساؤلات، لأن ملف الجريمة ما زال مُغلقًا في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، بالرغم من مرور قرن كامل على وقوعها. ولم يُكتب إلا القليل القليل عن عبد الرحمن اليوسف بعد مماته، باستثناء كتاب يتيم ظهر نهاية العام ١٩٢٠، وضعه صديقه الأديب عبد القادر بدران، هو نافد وغير متوفر في المكتبات. أما بقية المؤلفات، فيأتي ذكر اليوسف فيها بشكل عابر، لا يتجاوز السطرين أو الثلاثة، دون الدخول بأي استنتاجات أو تحليلات أو تفاصيل.

مصادر البحث ومراجعه

_ اللقاءات:

السيد زهير اليوسف (دمشق، ١ شباط ٢٠١٧).

السيدة فاتن اليوسف (٥ آذار ٢٠١٩).

الباحث عمرو الملاح (٤ آب ٢٠١٩).

_ الصحف:

جريدة القبس – جريدة العاصمة

_ الأوراق غير المنشورة:

أوراق المرحوم حسن سامي اليوسف ابن عبد الرحمن باشا اليوسف.

_ المراجع العربية:

الإبيش، أحمد، والشهابي، قتيبة. معالم دمشق التاريخية (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٦).

الأسطواني، عبد الغني. العرب من وراء اللهب: مذكرات المجاهد عبد الغني الأسطواني (دار قتيبة، دمشق ١٩٨٦).

بابيل، نصوح. صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين (دار رياض نجيب الريّس، لندن ١٩٨٧).

بدران، عبد القدار. الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق ١٩٢٠).

جمال باشا. مذكرات جمال باشا (دار الفارابي، بيروت ٢٠٠٣).

الحصري، ساطع. يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث (مكتبة الكشاف، بيروت ١٩٤٨).

الحكيم، يوسف. سورية والعهد العثماني (دار النهار، بيروت ١٩٦٦).

الحكيم، يوسف. سورية والانتداب الفرنسي (دار النهار، بيروت ١٩٨٣).

حيدر، رستم. مذكرات رستم حيدر (الدار العربية، بيروت ١٩٨٨).

خوري، كوليت. أوراق فارس الخوري: نشأة الفارس والثورة العربية (دمشق ١٩٨٩).

ديوب، بسام. المحمل وقافلة الحج الدمشقي (دار الأوس، دمشق ٢٠١٢).

الريماوي، سهيلة. الحكم الحزبي في سورية أيام العهد الفيصلي ١٩١٨-١٩٢٠ (دار المجدلاني، عمّان ١٩٩٧).

الشطي، محمد جميل. أعيان دمشق في القرن الثالث ونصف القرن الرابع عشر (دار البشائر، دمشق ١٩٩٤).

شيلشر، ليندا. دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (دار الجمهورية، دمشق ١٩٩٨).

الصباغ، ليلى. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٣).

عبد الحميد الثاني، السلطان. مذكرات السلطان عبد الحميد (دار القلم، دمشق ١٩٩١).
العظم، خالد. مذكرات خالد العظم، ثلاثة أجزاء (الدار المتحدة، بيروت ١٩٧٢).
العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها (دار رياض نجيب الريّس، لندن ١٩٨٧).
العمري، صبحي. ميسلون: نهاية عهد (دار رياض نجيب الريس، لندن ١٩٩١).
فرزات، محمد حرب. الحياة الحزبية في سورية ١٩١٨-١٩٥٥ (دار الرواد، دمشق ١٩٥٥).
قاسمية، خيرية. الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨-١٩٢٠ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢).
كيال، منير. محمل الحج الشامي (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦).
الملاح، عمرو. الألقاب في المجتمع السوري بين الأمس واليوم (موقع التاريخ السوري المعاصر، ٢٠١٨).
منصور، أحمد وليد. قصاصات غير قابلة للطعن بين القضاء والسياسيين السوريين ١٩١٨-١٩٦١ (دار صفحات، دمشق ٢٠١٨).

المراجع الأجنبية

Allawi, Ali. Faisal I of Iraq (Yale University Press, 2014).
Batatu, Hanna. Syria's Peasantry: The descendants of its lesser rural notables and their politics (Princeton University Press, 1999).
Çiçek, Talha. War and state formation in Syria: Cemal Pasha's governorate during World War I (Routledge Studies 2017).
Kinross, Lord. The Ottoman Centuries: The rise and fall of the Turkish Empire (William Morrow Paperbacks, 1979).
Russell, Malcolm. The First Modern Arab State: Syria under Faisal I (Bibliotheca Islamica, 1987).
Thompson, Elizabeth. Colonial Citizens: Republican rights, paternal privileges, and gender in French Syria and Lebanon (Columbia University Press, 2000).
Weber, Stefan. Damascus: Ottoman modernity and urban transformation 18081918- (Aarhus University Press, 2009).